كفى تَسَوُّل!

تبذل الحكومات الرشيدة الراقية كثيراً من الجهد والمال، في سبيل تثقيف ابنائها، والترفيه عنهم، وتوفير الراحة والطمأنينة لهم، وإبعادهم عن كل ما من شأنه، أن يعكر صفاء عيشهم، أو يُسيء إلى سمعتهم، أو يخيّب آمالهم وأمانيهم في المستقبل المنظور.

الحكومة الواعية، بمثابة أمٍّ رؤوم، تجنّب فلذات كبدها الجهل، وتدفع عنهم الضرر والأذى، وتحرص على إظهارهم بمظهر أنيق جميل، يثير من حولهم القدر والاعجاب بل الثقة!

والواقفون على تواريخ انبعاث الأمم والشعوب، منذ أبعد العصور إلى يومنا هذا، يعلمون جيداً، أن رقيّ الشعب منوط برقيّ حكّامه، وان راحته ورفاهيته، وقف على ما يسنّون من أنظمة، وما يصدرون من قوانين ومراسيم، تسودها الحكمة والعدالة وروح الإصلاح، وتراعى فيها حقوق الفرد والمجموع معاً. فمن المحال أن تجد شعباً حرّاً كريماً، يتولى أمرَه حاكمٌ وكلٌ خامل ذليل. ذلك أن مقومات التقدّم والرقيّ بل الوجود، تفرض الجدّ في العمل، والإخلاص في السعي، والتضحية في أداء الواجب الوطني والإنساني. فالمصلحة الذاتية ينبغي أن تنطفئ كالقطاعة الصابون، وأن تضمحل كالهباء المنثور، تجاه مصلحة الوطن.

بلادنا يبدو انها تستيقظ من رقدة ليست هي الأولى في تاريخها، فهل تراها اليوم تسير فعلاً في ركب الإصلاح ليس بالأقوال وحسب بل بالأفعال أيضاً؟

هل تراها حقاً تشبّ إلى قمم المجد الوضّاء، بهمّة الليث، وطموح النسر، وعظمة الزمن بحقه وكرامته في الحياة. فالتطوّر يوجب الوثوب بأقدام الجبابرة، ويفضي بالمسنّو إلى مراقي العزّة والحضارة الباذخة؟

نعمت بلادنا أحياناً بانتعاش ما وإنما بفضل أفراد برعوا هنا وهناك وهنالك. ولكن، يبدو ان الطبع غلب التطبّع في معظم الأحيان فدبّ في دنيانا ودنيا العرب شقاق وفوضى إلى أن تقوّض صرح مدنيتنا وبدأت تتعرّى مجتمعاتنا من برود العلم والفن والعمران. فصرنا نذكر بعض عصورنا كما يذكر المرء حلماً جميلاً وادعاً لم يهنأ به كثيراً.

كنّا ولمّا نزل نركن إلى حبّ الظهور وإلى حبّ الربح والكسب السريع. هذا ما انتابنيُ حوله عام ١٩٧٢ كتبتُ بعنوان «العليلية». لا نزال نؤمن بالعمل المُثري لا المنتج وبالإصلاح الجزئي بدلاً من الإصلاح الشامل المشيّد على أسس راسخة من التنظيم القويم.

ابتدعنا قديما الأبجدية وإنما لأهداف تجارية. رغبنا دوماً أن نكون في المقدمة في المستوى الفردي لا الجماعي. لسنا أن ندّعي كلنا رؤساء، لا مسؤولين فيتنا في معظمنا أذناباً. أليس من حقنا أن نعيش سادة أعزّاء، وأن نثبت للملا اننا جديرون بمطارف العزّ والسيادة. علل أخفتْ علالاً حتى أن الوباء المستجدّ انبرى مسؤولون لمكافحته صوناً لصحتهم هم وهنائهم هم بالدرجة الأولى. نخفي المرض عموماً أو نتجاهل وجود الداء، ونتقاعس عن مكافحة العلة المستقرة في كياننا. وعلى الرغم من بعض النضال هنا أو هناك، نرى ان مكافحة التسوّل على غير صعيد وفي غير مجال، هي الركن الأساسي لمواجهة سائر علّتنا. ثمة ما يبرّر تسوّل فئة من المجتمع دون سواها. علينا مكافحة المتسوّلين عبر معالجتين مختلفتين وإنما متكاملتين. ولهذه المقاربة صلة.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه